دور فتوى الدفاع الكفائي بدحر الإرهاب وصيانة حقوق الانسان

د. وليد عبد الغفار محمد رضا الشهيب الحلي
الأمين العام لمؤسسة حقوق الإنسان في العراق

ملخص البحث :

الفتوى التاريخية "الدفاع الكفائي" للمرجع الديني الأعلى آية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله العالي) في ١٤ شعبان ١٤٣٥ هجري (١٣ حزيران ٢٠١٤) "، ساهمت وبشكل واضح ومباشر بانتصار قيم ومبادئ حقوق الانسان في دحر الزيف الداعشي، وحفظ سيادة العراق ووحدة مكوناته. تميزت هذه الفتوى (طوق النجاة) بتحقيق العديد من الانجازات أهمها: تأسيس الحشد الشعبي الذي ساهم برفع مستوى الوعي والتأهب والتضحية والفداء والتصدي للإرهاب في نفوس العراقيين، ومقاومة الإرهاب، والمشاركة في تخليص العراقيين من شرورهم. وساهمت الفتوى برفع الروح المعنوية للقتال والمقاومة والتصدي والانتصار في نفوس القوات الأمنية من الجيش والشرطة الاتحادية والأمن والمخابرات والاستخبارات إضافة الى الدفاع الجوي وطيران الجيش وبمعونة الحشد الشعبي غذت هذه النهضة والهمة القتالية العالية للانتصار السريع على الإرهاب الداعشي. أضفى توجه المرجعية الدينية العليا الى الالتزام بحقوق الانسان فكانت المعارك بيضاء أي دون انتهاك متعمد لحقوق الانسان، والمعارك نظيفة لخلوها من استخدام أسلحة الدمار الشامل والمواد الممنوعة دوليا مثل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والذرية والجرثومية، والتي لا يملكها العراق، ونموذجية: لالتزامها بخوض المعارك من حيث الخطط والالتزامات والتنفيذ وفق المعايير والمقاييس الدولية والاهتمام بالبنى التحتية والنازحين، واستخدام الأسلحة الذكية ضد المحاربين من أعدائها. كما أن الفتوى خلت من أية دعوة لتوجهات مخالفة لوحدة العراق وسيادته أكانت حزبية أو قومية أو غيرها، وساهمت في وقف انهيار الدولة العراقية واحتمالية سقوطها بيد تلك الجماعات الإرهابية لا سيما بعد وصولهم إلى أطراف محافظة بغداد العاصمة، وساهمت بإخماد الفتنة الطائفية التي كان يهدف داعش لتحقيقها في الغزو بدعم من خارج الحدود العراقية. ساهمت الفتوى وبعون الله بالانتصار على زحف الإرهاب

الداعشي الذي اجتاح مساحات واسعة في عدة محافظات عراقية. دعمت الفتوى السلم والأمن الدولي في القضاء على مركز الإرهاب الداعشي في العراق، وقدمت للإنسانية نموذجا رائعا عن دورها المميز في تصديها المبكر لدحر الغزو والعدوان وتوحيد الصفوف وتعاونها وتكاتفها لنصرة الحق ضد الباطل.

المقدمة:

تعرض الشعب العراقي لأكثر من نصف قرن الى أنواع العذاب والمحن والويلات والحروب والإرهاب والانتهاكات القاسية لحقوق الانسان من قبل حزب البعث وقياداته منذ تسلطهم على العراق عام ١٩٦٨ وسقوطهم عام ٢٠٠٣، ثم بعدها توغلهم ودعمهم للإرهاب بأنواعه ومنها تنظيمات القاعدة الى الغزو الداعشي للعراق في عام ٢٠١٤، واستمرار إرهابهم الى يومنا هذا (١٩٦٨-٢٠٢٢) (١).

هذا الحزب الذي أوجد ودعم الإرهاب الداعشي بمساندة دول خارجية استهدف تصفية وإبادة من يخالفهم في العقيدة والرأي والفكر والسياسية والدين، وقد تعرض المسلمون الشيعة والسنة والمسيحيون والكلدانيون والآشوريون والايزيديون والشبك والصابئة وغيرهم إلى الانتهاكات الواسعة والقاسية لحقوق الإنسان أنتجت الإبادة الجماعية وتلتها المقابر الجماعية، وساد القهر والاعتداء والتعذيب والتهجير والتصفيات والقتل والحروب والإرهاب والتأثير النفسي المؤذي لشرائح واسعة من المجتمع. كما إن التربية المعادية للإنسانية والمنتهكة لحقوق الانسان والتي انتهجها حزب البعث وقياداته هي التي أنتجت القتل والانتقام والخراب في العراق والعديد من الدول، والتي تعد في مضمونها جرائم إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب (١).

الحروب التي تعرض لها الشعب العراقي المظلوم بدأت بالحروب الداخلية على العرب والكرد والتركمان وبقية المكونات العراقية العرقية، والاستهداف الديني والسياسي ضد المسلمين الشيعة والسنة والمرجعيات الدينية والعلماء والحوزات العلمية الدينية والأحزاب السياسية والكيانات وحروبه الخارجية مع الجمهورية الاسلامية في إيران لمدة

ثمانية أعوام (١٩٨٠-١٩٨٨) وغزو دولة الكويت عام (١٩٩٠) اضافة الى الحروب الخليجية الأخرى التي امتدت الى عام ٢٠٠٣.

واستمرت الحروب بأشكال أخرى متنوعة عبر الانتهاكات القاسية والواسعة لحقوق الانسان والإبادة والهجرة والإرهاب والتفجيرات من قبل بقايا حزب البعث بعد عام ٢٠٠٣ والتي دعمت تنظيمات القاعدة وآخرها الإرهاب الداعشي (٢).

المبحث الأول: ظروف صدور فتوى الدفاع الكفائي

الموسوي، صفاء (٣) سرد تفاصيل سقوط الموصل ووصف السقوط "بمؤامرة دبرت بتدخل خارجي" وكيفية سيطرة داعش عليها من خلال الحرب النفسية والدعائية مفصلا الأحداث بهذا الشكل: " أسقطت مدينة الموصل العراقية "بجيش إعلامي الكتروني جرار يقف خلفه امهر الخبراء في الحرب النفسية والدعائية، بالإضافة الى حفنة قليلة من المقاتلين الذين عبروا الحدود والذين لا يعتبرون تهديدا حقيقيا بإمكانه إسقاط هذا العدد الكبير من المدن والقرى والقصبات، فالمدن العراقية كانت تتهاوى الواحدة تلو الأخرى وبدا الانهيار النفسي واضحا حتى لدى القوات الأمنية المرابطة في عمق العاصمة العراقية بغداد، كل ذلك ليس بسبب إعداد المقاتلين الدواعش أو تسليحهم وتجهيزاتهم فمن خلال الحسابات العسكرية وبموازين القوة على الارض يفترض ان الغلبة العسكرية تكون لصالح القوات العراقية في أي مواجهة بين الطرفين، كل هذا حدث في ظل انهيار إعلامي للمؤسسات الحكومية وغير الحكومية".

مضيفا ان "عامل الحرب النفسية مع الشحن الطائفي والفساد والخيانات أثرت على القوات العسكرية والأمنية وأدت الى فقدانهم الأمل باستعادة السيطرة على الأوضاع، سيما وان العقل اللاواعي العراقي مشبع بصور ومشاهد عن انكسار الجيش العراقي عام ١٩٩١ وهروب بعض أفراده وكذلك انكسار الجيش العراقي عام ٢٠٠٣ وهروب الكثير من القيادات والجنود في ذلك الحين".

مؤكداً على "ان بداية النهاية لداعش هو بتاريخ صدور تلك الفتوى لآثارها النفسية في رفع المعنويات القتالية لدى القوات العراقية اكبر بكثير من تأثيراتها العسكرية، حيث التقط الجميع أنفاسهم وأعادوا تنظيم صفوفهم استعدادا لتحرير الأراضي العراقية".

خاتماً مقاله بتحذير للمرحلة القادمة حيث شرعت عمليات النزيف للذاكرة "وبرمجة العقول لنسيان تلك المرحلة والانشغال بقضايا كثيرة ومتسارعة لغرض استكمال المخططات الإرهابية في سحق هذا الشعب بالكامل من خلال إثارة النزاعات والصراعات الهامشية بين فئات الشعب العراقي وتعميق الشرخ الاجتماعي والأحقاد العنصرية والطبقية".

جاءت فتوى "الدفاع الكفائي" للمرجع الديني الأعلى آية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله العالي) في ١٤ شعبان ١٤٣٥ هجري (١٣ حزيران ٢٠١٤) بمثابة الانتفاضة التي أيقظت الهمة والاندفاع العراقي المليوني الكبير للدفاع والتضحية عن المقدسات والوطن وسيادته ضد الغزو الداعشي.

أصبحت فتوى الدفاع الكفائي "طوق النجاة" للعراق بعد الذي حدث بتاريخ ١٠ يونيو/حزيران ٢٠١٤ من غزو داعش، وبالتالي صار العراق على أعتاب مرحلة جديدة من الكفاح للتحرر من سيطرة تلك الجماعات الإرهابية. أيقظت هذه الفتوى الهمة والاندفاع العراقي المليوني للدفاع والتضحية عن المقدسات والوطن وسيادته ضد الغزو الداعشي، فكانت الانتفاضة الشعبية المليونية في الدفاع الكفائي عن أعراض وشرف وكرامة العراقيين بغض النظر عن دينهم وقوميتهم وأصلهم الأثني.

نصت فتوى الدفاع الكفائي بعد احتلال تنظيم داعش لمحافظة نينوى (الموصل) ١٣ حزيران ٢٠١٤ ما يلي: "إن طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي ، بمعنى أنه إذا تصدى له من بهم الكفاية بحيث يتحقق الغرض وهو حفظ العراق وشعبه ومقدساته يسقط عن الباقين. ومن هنا فان المواطنين

الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية" (٤).

المبحث الثاني: ابرز أوجه التشابه بين منهجي حزب البعث وداعش في انتهاكات حقوق الانسان

ان السلوك الإجرامي الذي اختطه حزب البعث هو من بنيت على أساسه القاعدة وداعش، فكانت الإبادة الجماعية وتلتها المقابر الجماعية وساد القهر والاعتداء والتعذيب والتهجير والتصفيات والقتل والحروب والإرهاب كل شرائح المجتمع .

ان استمرار المنهج الإرهابي لحزب البعث وقادته في العراق والدول الأخرى وامتداده الى تنظيمات عصابات داعش التي استمرت بالانتهاكات القاسية لحقوق الانسان بأبشع شكل، وحجم الجرائم والاعتداءات التي عانى منها الشعب العراقي بكل مكوناته ابان حكم حزب البعث - صدام وما سببته من آلام ومآسي وفواجع وأحزان إضافة الى انتهاك حقوق العوائل التي اكتويت بجرائمه منذ عام ١٩٦٣ والى اليوم هي السبب الرئيسي بعدم الاستقرار المحلي والإقليمي والدولي .

داعش استفاد من منهج حزب البعث في قمع الشعب العراقي، ومن أكثر الانتهاكات القاسية لحقوق الانسان التي مارسها حزب البعث استخدمها الإرهاب الداعشي في تعامله مع العراقيين، ومنها نذكر ما يأتي (٢):

١- عدم الالتزام بالقوانين، وصدور الأحكام يتم عبر أشخاص غير قضاة.

٢- العمل بطريقة ديكتاتورية مخالفة للإسلام وكل الأنظمة الديمقراطية.

٣- منهج العدوانية ضد المخالف لأفكارهم وأرائهم ومعتقداتهم.

٤- انتهاكاتهم الواسعة والقاسية لحقوق الانسان على أسس طائفية أو عنصرية أو على الظن والشبهة.

٥- عدم وجود خطة عمل واضحة وبرامج للتنفيذ.

٦- تبديد الثروة لتحقيق مآربهم ومجدهم وشخصهم وليس للأعمار ومنفعة الانسان .

٧- القتل والذبح والاعتداء على الشخصية واقتراف الذنوب والفواحش.

٨- إبادة المدن والقرى والمناطق المخالفة من دون رعاية لاي حقوق.
٩- إشاعة الخوف والذعر والقهر والاضطهاد.
١٠- قمع التظاهرات والانتفاضات المعارضة لمنهجهم.
١١- استخدام الإعلام الكاذب والإرهابي والمضلل.
١٢- الاعتقال والمطاردة والتعذيب والقتل من دون مبرر قانوني أو شرعي.
١٣- التهجير وتدمير البيوت والممتلكات حسب الأهواء والرغبات.
١٤- التشابه في منهجي البعث وداعش في إيجاد عشرات المقابر الجماعية أينما حلوا في حروبهم الإجرامية.
١٥- يشترك حزب البعث مع داعش في قتل وإبادة علماء المسلمين والمسيحيين والايزيدين والصابئة والشخصيات المخالفة لمنهجهم.
١٦- استخدام السلاح المحظور دوليا مثل السلاح الكيميائي.
١٧- استخدام الرهائن والدروع البشرية والتضحية بهم للدفاع عن قواتهم.
١٨- التحكم بالنظام القضائي حسب رغباتهم وليس لتحقيق العدل في القضاء
١٩- إجبار الناس على الانتماء لحزبهما وتنفيذ الأوامر.
٢٠- تسخير التربية والتعليم والجامعات لإعداد شباب إرهابيين ويدعمون حروبهم العدوانية.
٢١- عدوانيتهم شملت العراق ودول أخرى وهم السبب في انتشار الإرهاب في عدة دول عالمية.

المبحث الثالث: الانتصار ودحر الإرهاب الداعشي

أهم النقاط التي ذكرت في خطبة النصر التي ألقاها ممثل المرجعية الدينية العليا في كربلاء المقدسة سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي في الصحن الشريف في (٢٦/ ربيع الأول/١٤٣٩هـ) الموافق (٢٠١٧/١٢/١٥م)، (نص الخطبة في المصدر: ٥)

١-انتصرتم بإرادتكم الصلبة والعزيمة الراسخة في الحفاظ على الوطن وكرامته ومقدساته بتضحياتكم الكبيرة حيث قدمتم أنفسكم وفلذات أكبادكم وكل ما تملكون فداءً للوطن

الغالي فسطرتم أسمى صور البطولة والإيثار وكتبتم تاريخ العراق الحديث بأحرف من عزّ وكرامة تم على أعتى قوة إرهابية استهدفت العراق بماضيه وحاضره ومستقبله.

٢-ان المرجعية الدينية العليا صاحبة فتوى الدفاع الكفائي التي سخّرت كل إمكاناتها وطاقاتها في سبيل إسناد المقاتلين وتقديم العون لهم، وبعثت بخيرة أبنائها من أساتذة وطلاب الحوزة العلمية الى الجبهات دعماً للقوات المقاتلة وقدمت العشرات منهم شهداء في هذا الطريق... لا ترى لأحد فضلاً يداني فضلكم ولا مجداً يرقى الى مجدكم في تحقيق هذا الانجاز التأريخي المهم.

٣- إننا نعجز عن أن نوفيكم بعض حقكم ولكن الله تعالى سيوفيكم الجزاء الأوفى، وليس لنا إلا أن ندعوه بأن يزيد في بركاته عليكم ويجزيكم خير جزاء المحسنين.

٤-إننا اليوم نستذكر بمزيد من الخشوع والإجلال شهداءنا الأبرار الذين روّوا أرض الوطن بفيض دمائهم الزكية، فكانوا نماذج عظيمة للتضحية والفداء. ونستذكر معهم عوائلهم الكريمة : آباءهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم وإخوتهم وأخواتهم ، أولئك الأعزة الذين فجعوا بأحبتهم فغدوا يقابلون ألم الفراق بمزيد من الصبر والتحمل.

٥- نستذكر بعزة وشموخ أعزاءنا الجرحى ولا سيما من أصيبوا بالإعاقة الدائمة وهم الشهداء الأحياء الذين شاء الله تعالى ان يبقوا بيننا شهوداً على بطولة شعب واجه أشرار العالم فانتصر عليهم بتضحيات أبنائه.

٦- نستذكر بإكبار وامتنان جميع المواطنين الكرام الذين ساهموا في رفد أبنائهم المقاتلين في الجبهات بكل ما يعزز صمودهم.

٧- نستذكر بشكر وتقدير كل الذين كان لهم دور فاعل ومساند في هذه الملحمة الكبرى من المفكرين والمثقفين والأطباء والشعراء والكتّاب والإعلاميين وغيرهم.

٨-نقدم الشكر والتقدير لكل الأشقاء والأصدقاء الذين وقفوا مع العراق وشعبه في محنته مع الإرهاب الداعشي وساندوه وقدموا له العون والمساعدة سائلين الله العلي القدير أن يدفع عن الجميع شر الأشرار وينعم عليهم بالأمن والسلام .

٩-إن النصر على داعش لا يمثل نهاية المعركة مع الإرهاب والإرهابيين بل ان هذه المعركة ستستمر وتتواصل ما دام أن هناك أناساً قد ضُلّلوا فاعتنقوا الفكر المتطرف الذي لا يقبل صاحبه بالتعايش السلمي مع الآخرين ممن يختلفون معه في الرأي والعقيدة ولا يتورع عن الفتك بالمدنيين الأبرياء وسبي الأطفال والنساء وتدمير البلاد.

١٠- حذار من التراخي في التعامل مع هذا الخطر المستمر والتغاضي عن العناصر الإرهابية المستترة والخلايا النائمة التي تتربص الفرص للنيل من أمن واستقرار البلد.

١١-ان مكافحة الإرهاب يجب ان تتم من خلال التصدي لجذوره الفكرية والدينية وتجفيف منابعه البشرية والمالية والإعلامية.

١٢-الاهتمام بالعمل التوعوي لكشف زيف وبطلان الفكر الإرهابي وانحرافه عن جادة الدين الإسلامي الحنيف.

١٣-ضرورة العمل على تحسين الظروف المعيشية في المناطق المحررة وإعادة إعمارها وتمكين أهلها النازحين من العودة إليها بعزة وكرامة وضمان عدم الانتقاص من حقوقهم الدستورية.

١٤-إن المنظومة الأمنية العراقية لا تزال بحاجة ماسة الى الكثير من الرجال الأبطال الذين ساندوا قوات الجيش والشرطة الاتحادية خلال السنوات الماضية وقاتلوا معها في مختلف الجبهات وأبلوا بلاءً حسناً في أكثر المناطق وعُورةً واشد الظروف قسوة.

١٥-ان من الضروري استمرار الاستعانة والانتفاع بهذه الطاقات المهمة ضمن الأطر الدستورية و القانونية التي تحصر السلاح بيد الدولة وترسم المسار الصحيح لدور هؤلاء الأبطال في المشاركة في حفظ البلد وتعزيز أمنه حاضراً ومستقبلاً، والوقوف بوجه أي محاولات جديدة للإرهابيين بغرض النيل من العراق وشعبه ومقدساته.

١٦-العناية بعوائل الشهداء الأبرار من الأرامل واليتامى وغيرهم، ان رعاية هؤلاء وتوفير الحياة الكريمة لهم من حيث السكن والصحة والتعليم والنفقات المعيشية وغيرها واجب وطني وأخلاقي وحق لازم في أعناقنا جميعاً.

١٧-الرعاية والعناية للجرحى والمصابين في صفوف الأبطال المشاركين في العمليات القتالية.

١٨-من الضروري المحافظة على معظم الذين شاركوا في الدفاع الكفائي ومكانتهم الرفيعة والسمعة الحسنة وعدم محاولة استغلالها لتحقيق مآرب سياسية يؤدي في النهاية الى أن يحلّ بهذا العنوان المقدس ما حلّ بغيره من العناوين المحترمة نتيجة للأخطاء و الخطايا التي ارتكبها من ادّعوها.

١٩-من أولويات المرحلة المقبلة التحرك بشكل جدي وفعال لمواجهة الفساد والمفسدين، فلا بد من مكافحة الفساد المالي والإداري بكل حزم وقوة من خلال تفعيل الأطر القانونية وبخطط عملية وواقعية بعيداً عن الإجراءات الشكلية والاستعراضية.

المبحث الرابع: الانجازات التي حققتها مرجعية السيد السيستاني قبل فتوى الدفاع الكفائي:

برزت المرجعية الدينية العليا لسماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله العالي) في العالم والعراق، على انها مرجعية الحكمة والاتزان والمواقف الصائبة والحلول الناجعة للازمات وفق المبادئ والقيم الدينية والإنسانية .

ومن أبرز المحطات التي برزت الدور الإنساني والعملي في مرجعيته، نذكر ما يأتي:

أولا: الوحدة ونبذ العنف والكراهية وإطفاء الفتن.

إصدار البيانات التي تحث المجتمع على التلاحم والوحدة، نبذ العنف والكراهية بين مكونات المجتمع، والتعاون لتكوين كتلة متراصة لحل مشاكل الناس ، وإطفاء الفتن والتحريض على قتل الانسان لأخيه.

ثانيا: التسامح وإقامة العلاقات ونشر الفضيلة.

التسامح منهج أخلاقي من القيم العليا وهو كسلوك وموقف مطلوب في الحفاظ على العلاقات والوشائج بين مكونات المجتمع.ويؤكد السيد السيستاني على ان الغلظة والشدة والعنف في العلاقات من دون واعز ديني وأخلاقي دليل على الضعف، إذ ان

المحبة والمودة والتآلف بين إفراد الأمة الواحدة فيما بينها وبين الأمم والشعوب، ضروري لنشر القيم والمبادئ بدلا من تحكيم أدوات الشيطان في تعكير الصفوف.

ثالثا: التعايش السلمي وردع التمييز الطائفي والعنصري.

يشير سماحته على ان التعايش السلمي بين مكونات المجتمع وتجاوز الاختلافات الطائفية والعنصرية يساهم بشكل إيجابي في بناء المجتمع الناجح.

رابعا: انتخاب دستور البلاد.

أكدت المرجعية بعد سقوط الطاغية عام ٢٠٠٣، على ضرورة كتابة الدستور العراقي من قبل العراقيين وضرورة التصويت عليه من كل المكونات العراقية وتحقق ذلك عام ٢٠٠٥.

ان إصراره على كتابة الدستور في أول خطوة تنفذ قبل أي عمل آخر يؤكد عمق تشخيصه بضرورة إيجاد مرجعية واحدة يحتكم إليها عند اختلاف الآراء بين مكونات المجتمع، ويحفظ حقوق الجميع ومشاركتهم في الحكم وفق الآليات المحددة بالدستور كذلك يوزع الثروة بشكل عادل ويضمن توزيع السلطات فيما بينهم وينظم صلاحيات وواجبات السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية في الدولة.

خامسا: إجراء الانتخابات الحرة والنزيهة.

الانتخابات الحرة والنزيهة هي الآلية الديمقراطية السلمية لتشكيل البرلمان ومجالس المحافظات والحكومة وغيرها.

وبدأ السيد السيستاني بحملة توجيهية وتوصيات مستمرة بضرورة إجراء الانتخابات وفق الآليات العملية الديمقراطية التي ترعى حقوق جميع المكونات ، بدءاً من إقامة دولة مدنية تحفظ فيها الحقوق من خلال الصندوق الانتخابي إلى عملية المحافظة على القرار المشترك وعدم تهميش احد.

سادسا: ترشيد أداء السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية وتوجيهها.
المرجعية العليا أكدت مراراً من خلال خطب الجمعة على ضرورة الاهتمام ببناء الدولة وتقديم الخدمات الى الناس والاهتمام بالفقراء والمحتاجين وصحة الناس، والتعاون للبناء والأعمار والدفاع عن الوطن من عدوان الإرهابيين ومن يساندهم.
سابعا: المطالبة في الإصلاحات والالتزام بالقانون.
لم تكتفِ المرجعية بمراقبة أداء الحكومات، وإنما كانت هناك توجيهات مستمرة لتصحيح مسيرة الأداء الحكومي، وقد لوحظ وبشكل ملفت للنظر ان المرجعية الدينية قد أغلقت الباب بوجه السياسيين ومنعت من استقبالهم احتجاجا على عدم الاستجابة للمطالب التصحيحية لمسيرة الحكومة، وقد أكد سماحة السيد السيستاني مراراً على سوء استغلال السلطة وعلى ضرورة مكافحة الفساد وشدد على لزوم تمكين القضاء من ممارسة دوره في محاسبة الفاسدين ومعاقبتهم (٧).
ثامنا: التصدي للإرهاب ومثالها فتوى الدفاع الكفائي ضد الإرهاب داعش.
المبحث الخامس: الانجازات التي حققتها فتوى الدفاع الكفائي.
نستعرض أهم الانجازات التي حققتها هذه الفتوى ومساهماتها في تحقيق أهدافها في الذكرى السنوية الثامنة لها في تخليص العراقيين من الأشرار الإرهابيين، وتحرير المحافظات والمدن التي استولت عليها عصابات داعش، وحفظ الأمن، وتحكيم القانون، ودعم الآليات الديمقراطية ووقوفها مع المواطنين اثر الصدمة التي أصيب بها الناس بعد اكتشافهم للشعارات الكاذبة والإساءة المتعمدة للدين وقيمه التي طرحتها عصابات داعش الذين اثبتوا بإعمالهم الإرهابية والتي شملت الكبير والصغير والرجل والمرأة أنهم لا دين لهم ولا ضمير ولا انسانية.
١- رفع مستوى الوعي والتأهب والتضحية والفداء والتصدي للإرهاب في نفوس العراقيين وفي مقدمتهم القوات الأمنية جميعها من الجيش والشرطة الاتحادية والأمن والمخابرات والاستخبارات وبمعونة الحشد الشعبي إضافة الى الدفاع الجوي وطيران الجيش ، وساعدت على الانتصار السريع على الإرهاب الداعشي.

٢- نهضت الفتوى بالالتزامات في رعاية حقوق الانسان وخاصة القوات الأمنية المتنوعة: وخاضت معارك بيضاء ونظيفة ونموذجية.

بيضاء: أي من دون انتهاك متعمد لحقوق الانسان .

نظيفة: أي خلوها من استخدام أسلحة الدمار الشامل والمواد الممنوعة دوليا مثل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والذرية والجرثومية والتي لا يملكها العراق.

نموذجية: أي الالتزام بخوض المعارك من حيث الخطط والتنفيذ وفق المعايير والمقاييس الدولية والاهتمام بحقوق الانسان والبنى التحتية والنازحين ، واستخدام الأسلحة الذكية ضد المحاربين من أعدائها.

٣- الفتوى رفعت همة المقاتلين ليتميزوا بأنهم لم يخالفوا قوانين البلاد أو القوانين الدولية في ارتكاب جرائم الحرب في العدوان والاحتلال للمدن بغير حق وبشكل يخالف القوانين والشرع والأعراف وباستخدام القوة المدمرة ضد الأبرياء والمدنيين مثل المفخخات والأشخاص الملغومين والإرهاب لترويع المواطنين واضطهادهم، ولم تمارس الإبادة الجماعية في تصفية وإبادة من يخالفهم العقيدة والرأي والفكر والسياسية، ولا الجرائم ضد الإنسانية في نشر البغضاء والكراهية والعدوان والقتل والاعتداء.

٤- ساهمت الفتوى في إخماد نار الفتنة الطائفية التي كان يحضر لها خارج الحدود العراقية، وإنها كانت تخلو من أية دعوة لتوجهات طائفية أو قومية أو عنصرية. الفتوى دعمت المسؤولية في الحس الوطني العالي الذي يترفع عن أي نفس طائفي أو قومي، بل على العكس من ذلك كانت نداءً إلى جميع العراقيين دون استثناء للدفاع عن البلد وابتعدت عن ذكر كل ما يتعلق بأي طائفة أو مذهب.

لقد شكَلت الفتوى بعداً وطنياً فقد تركت الأثر الايجابي في نفوس الشعب العراقي على اختلاف مذاهبه وقومياته عبر التكاتف الملحمي البطولي في التصدي لزمر الإرهاب الداعشي وإصرارهم على تحرير الأراضي التي احتلتها تلك الجماعات.

٥- أوقفت انهيار الدولة العراقية واحتمالية سقوطها بيد تلك الجماعات الإرهابية لا سيما بعد تهديداتهم بالزحف إلى بغداد العاصمة.

٦- أسهمت الفتوى في توحيد الرأي العام الداخلي تجاه قضية مصير البلد والدفاع عنه ضد التنظيمات الإرهابية التي تمكنت من استثمار الظروف السياسية التي يمر بها العراق والأزمة التي نتجت عن عدم تشكيل حكومة، بعد انتخابات العام ٢٠١٤.

٧- أثرت الفتوى ايجابياً في الاهتمام بالحوار والتسامح واحترام الرأي والرأي الآخر والعدل والحقوق. كذلك في الحفاظ على البيئة إذ ان القوات الأمنية العراقية لم تلوث البيئة كما فعلت داعش باستخدام الغازات السامة والمواد الكيميائية المحظورة وإشعال النار في آبار نفط الموصل في محافظة نينوى ومصافي النفط ومشتقاته في بيجي في محافظة صلاح الدين ومعامل الكبريت ومعامل الأمونيا في الموصل مما تسبب في تسمم الجو المحيط بمواقع الحرائق وتلوث البيئة لأيام عديدة في العديد من المحافظات العراقية، فضلا عن منع تدمير البنية التحتية (الاقتصادية والزراعية).

٨-دافعت قوات الأمن العراقية في نهاية المطاف عن العراق والدول الإقليمية ودول العالم من شرور الإرهاب الداعشي.

٩-إيقاف زحف الإرهاب الداعشي الذي اجتاح مساحات واسعة في عدة محافظات (نينوى وصلاح الدين والانبار وأجزاء من كركوك وديالى وبابل وأطراف بغداد) ثم دحره والانتصار في كل مناطق العراق.

١٠-تقديم المساعدات لأكثر من ثلاثة ملايين نازح وتدمير مناطقهم ومحل عملهم وسكناهم والمستشفيات والبنى التحتية الأخرى، بدأت مرحلة عودة النازحين بعد توفير البيئة الملائمة لمعيشتهم وعودة الحياة للنازحين من جديد.

المبحث السادس: حول استمرارية مفعولية فتوى الدفاع الكفائي

استفتي سماحة المرجع السيد السيستاني حول الى أي مدى يمكن أن تستمر فتوى الدفاع الكفائي فأجاب بالنص الآتي: " لا تزال نافذة لاستمرار موجبها، بالرغم من بعض التقدم الذي أحرزه المقاتلون الأبطال في دحر الإرهابيين" ومعناها أن وجود القوات التي تشكلت من الحشد الشعبي سيستمر الى حين تحقيق النصر الكامل على الإرهابيين (نص الفتوى في المصدر ٦).

المبحث السابع: أهمية الحشد الشعبي كقوة إستراتيجية للدفاع عن الوطن والمقدسات:
القوات التي أنتجتها فتوى المرجع الأعلى- الحشد الشعبي- كونت قوة إستراتيجية للدفاع عن الوطن والدولة والمقدسات في العراق.
ساهمت مساهمة فعالة في نهضة القوات المسلحة العراقية وتصديها لدهر الإرهاب الداعشي وحفظ سيادة العراق بمسؤولية كبيرة وتضحية عالية.
تميزت في بولائها لدينها ووطنها وعدم المساومة في مبادئها بوحدة العراق والتعاون بين مكوناته والتحاقهم في الدفاع المشترك عن الوطن بعيدا عن التمييز الطائفي والديني والمذهبي والقومي والمناطقي.
هذه الانجازات التاريخية التي سجلتها فتوى المرجع الأعلى والقوات المخلصة التي انبثقت للدفاع عن القيم والاخلاق والوقوف ضد الوحشية الداعشية الطائفية والموجهة من قوى خارجية لتمزيق صف العراقيين ونقل المعركة فيما بينهم لمصلحة أعدائهم!!
وقد أكدت المرجعية العليا في خطاب النصر أهمية مساندة أبطال الحشد الشعبي للمنظومة الأمنية العراقية "لا تزال بحاجة ماسة الى الكثير من الرجال الأبطال الذين ساندوا قوات الجيش والشرطة الاتحادية خلال السنوات الماضية وقاتلوا معها في مختلف الجبهات وأبلوا بلاءً حسناً في أكثر المناطق وعورةً واشد الظروف قساوةً"
"ان من الضروري استمرار الاستعانة والانتفاع بهذه الطاقات المهمة ضمن الأطر الدستورية و القانونية التي تحصر السلاح بيد الدولة وترسم المسار الصحيح لدور هؤلاء الأبطال في المشاركة في حفظ البلد وتعزيز أمنه حاضراً ومستقبلاً، والوقوف بوجه أي محاولات جديدة للإرهابيين بغرض النيل من العراق وشعبه ومقدساته" (نص الخطبة في المصدر : ٥)
المبحث الثامن: التحديات التي واجهت قوات الحشد الشعبي وطرق معالجتها:
واجهت قوات الحشد الشعبي العديد من التحديات التي ينبغي ان لا يستسلم لها، وضرورة وضع العلاجات اللازمة لبقاء القوات في ميادينها الدفاعية في حفظ الوطن

العراق والدفاع عن سيادته الكاملة ووحدة مكوناته وسيادة الدستور والقانون واحترام خيار الشعب في انتخاب مجلس النواب وغيره المنصوص في الدستور.

النقاط الآتية هي قراءة لتوجيهات المرجع الأعلى السيد السيستاني من خلال خطب الجمعة لحفظ هذه القوات وتقويتها وديمومتها وتطويرها ولضمان شرعيتها واستمرارها (المصادر ٨ الى ١٢):

أولا: تقنين عمل الحشد الشعبي بشكل قانوني أسوة ببقية القوات الأمنية من التزامات وحقوق وواجبات.

ثانيا: تكون واجبات هذه القوات كقوة وطنية قانونية فاعلة وهي ملك للدولة وليس للأحزاب السياسية، أسوة بالجيش العراقي والشرطة والأمن وبقية الأجهزة الأمنية المسؤولة عن حفظ امن البلاد وفق القانون.

ثالثا: لها حقوقها الكاملة ومنها المشاركة في الانتخابات الحرة والنزيهة ولكن ليس ضمن حزب سياسي.

رابعا: التزامها بالتعليمات التي حددتها المرجعية العليا، وتمسكها بخطها الرسالي في العمل الجاد والنزيه والمخلص والمثابر، والترفع عن الحرام، والإساءة الى أحد، ومكافحة الفساد والرشوة والإرهاب، والابتعاد عن كل ما من شانه استغلال انتصاراتهم للشؤون الشخصية والسياسية والفئوية والمناطقية وغيرها.

وقد نشرت العديد من المقالات و أجريت اللقاءات التي اهتمت بتنظيم عمل الحشد الشعبي وفق مصلحة الأمة التي أرادها المرجع الأعلى، حيث ذكر سماحة السيد محمد علي بحر العلوم في مؤتمر حشد العتبات المقدسة الأوّل في ٢٠٢٠/١٢/٣، مبينا ان "مرجعيتنا الدينية العليا في كل خطاباتها انطلقت من مصلحة الأمة العراقية، ومن مصالح الدفاع عن الشعب العراقي من دون تفرقة بين مذاهب ومذاهب، وبين أديان وأديان، أو بين قوميات، ومؤكدا على أن "نحافظ على هذا الانتصار، كيف نحافظ على هذه الالتزام، الالتزام الذي وجد المقاتلون من أجلها، الالتزام بالأهداف العالية من حفظ الأرواح والبلد والمقدسات والأعراض، وعدم خلط النشاط العسكري بالسياسي،

فضلاً على استبداله به أمانة في أعناق الأمة، وأمانة في أعناق المتصدين، وأمانة في أعناق من بذل نفسه، وجعل نفسه في هذا المضمار، وفي هذا المجال، أمانة سوف يُحاسب كل إنسان عليها، وكيف أدى هذه الأمانة، وكيف تحمّل هذه المسؤولية في كل جوانبها العسكرية والأمنية" (١٣).

المبحث التاسع: دور الحشد في حماية وصيانة مبادئ وقيم حقوق الانسان :

اهتمت فتوى الدفاع الكفائي للمرجع الأعلى في الدفاع عن الجانب الإنساني المتمثل في قيم حقوق الانسان الخمسة: العدل، والاخلاق، والحقوق، والحريات، والواجبات التي تبنتها الأمم المتحدة (١٤و١٥) ، ولهذا فان مسؤولية الحشد أيضا تتضمن الاحترام والدفاع عن قيم ومبادئ حقوق الانسان.

وضحت الآية القرآنية رقم ٩٠ من سورة النحل قيم حقوق الانسان في العدل، والإحسان (الأخلاق)، والاهتمام بالأقارب (الواجبات) وحثت على عدم فعل الفساد وأنواع المنكر من القول والفعل والاعتداء على الغير (الحريات والحقوق): (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). وهذا يتضمن مزاولة الحريات الإنسانية والحقوق والسير بمبدأ حسن الحوار والنقاش واحترام العقائد المخالفة والرأي الآخر بعيداً عن العنف والإذلال والجريمة والإرهاب، والعمل على حفظ الأمن والسلام، ونشر المحبّة والتعاون والتفاهم بين الناس.

عندما تكون قيم حقوق الإنسان مهدورة، فإن الجميع سيكون في خطر داهم، ولهذا فان الالتزام بتطبيق هذه الفتوى لا يعني الاهتمام بجانب القتال مع الإرهاب فحسب، وإنما يستلزم الدفاع عن حقوق الانسان واستدامة الأمن والسلام.

في المادة ٢ من الإعلان العالمي لحقوق الانسان توضيح لما ينبغي ان يتمتع فيه الانسان من حقوق:

" المادة ٢: لكلِّ إنسان حقُّ التمتُّع بجميع الحقوق والحرِّيات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أيِّ نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة،

أو الدِّين، أو الرأي سياسيًا وغير سياسي، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أيِّ وضع آخر. وفضلاً عن ذلك لا يجوز التمييزُ على أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص، سواء أكان مستقلاً أو موضوعًا تحت الوصاية أو غير متمتّع بالحكم الذاتي أم خاضعًا لأيِّ قيد آخر على سيادته" (١٦).

فتحت فتوى الدفاع الكفائي آفاقاً مهمة بضرورة الاهتمام بالتطبيق العملي وعدم الاكتفاء بطرح الشعارات لقيم حقوق الانسان التي تدعو الى ضرورة تحرر الانسان من الاضطهاد والاستعباد والطغيان والتسلط غير المشروع للأنظمة والحكام والإرهاب الذين سلطوا الإرهاب على العراق. ان العالم لا زال بحاجة الى وعي قيمي وعمل تطبيقي لمعاني منظومة حقوق الانسان في العدل والاخلاق (التسامح) والحريات والحقوق والواجبات، وتقع على الدول المعنية بحقوق الانسان التزامات كبيرة، أولها ينبغي ان تلتزم في تعاملها مع الانسان في غير دولها بنفس المعايير التي تتعامل بها معه في دولها، كذلك تقع عليها مسؤولية الدفاع عن حقوق الانسان ليس من منظور مصالحها الاقتصادية أو السياسية، أو كشعارات نظرية استهلاكية لتمرير أجندتها التسلطية بعنوان براق جديد اسمه "حقوق الانسان.

جاءت فتوى الدفاع الكفائي بالتوكل على الله سبحانه وتعالى بالنصر على الإرهاب الداعشي، والقضاء على اليأس الذي حل بالكثيرين، ووحدت جهود وصفوف الأمة ضد الذين عملوا لتفتيتها، وعملت على رفع صورة الدين الإسلامي عالية ترفرف ضد كل الذين عملوا على تشويه صورتها، وتحققت الانتصارات الربانية التاريخية على دول الزيف السياسي والإعلامي والأمني والعقائدي لداعش ومؤيديه.

مصادر البحث:

١-الحلي، وليد، كتاب: " العراق، الواقع وآفاق المستقبل" طبع في مطبعة الفرات في بيروت عام ١٩٩٢، الصفحة ٢٦٤. و كتيب عن قراءة في واقع العراق ومستقبله باللغة الانكليزية، طبع في لندن عام ١٩٩٢. IRAQ ، FACTS AND FUTURE A DOCUMANTRY STUDY– pub. in London ١٩٩٢،OUTLOOK

٢-الحلي، وليد عبد الغفار الشهيب، "أوجه التشابه بين منهجي حزب البعث وداعش" مجلة العلوم القانونية والسياسية – كلية القانون والعلوم السياسية- جامعة ديالى، المجلد السادس، العدد الأول ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

٣-الموسوي صفاء ، "نزيف الذاكرة" في ١٥ حزيران ٢٠٢٠،

(safaa.sharhan@outlook.com)"

و(https://al-aalem.com/article/٤٨٤١٩)

٤-موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) https://www.sistani.org/arabic/archive/٢٤٩١٨/

و مجلد خطب الجمعة- المجلد العاشر- الجزء الأول (١٤٣٥- ١٤٣٦ هـ)، توثيق وتحقيق العتبة العباسية المقدسة- قسم الشؤون الفكرية والثقافية، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، صفحة ٣١٩-٣٢٢. خطب الجمعة الجزء الأول ٢٠١٤Pdf.

٥-خطبة النصر: موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) //https://www.sistani.org/arabic/statement/٢٥٨٧٥

٦-موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) https://www.sistani.org/arabic/archive/٢٥٥٨٢

٧-عبد علي أسعد عبد الله من الذاكرة القريبة: هذه أبرز مواقف السيد السيستاني، هيئة التحرير في شعبة البحوث والدراسات في العتبة الحسينية المقدسة في ٢٢-٠٦-٢٠٢٠،الموقعhttps://masom.imamhussain.org/more/١٠٩٧

٨- موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) https://www.sistani.org/arabic/archive/٢٤٩١٥
٩-موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) https://www.sistani.org/arabic/archive/٢٤٩٢١ /
١٠- موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) https://www.sistani.org/arabic/archive/٢٤٩٢٥
١١- موقع مكتب سماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) https://www.sistani.org/arabic/archive/٢٥٠٣٤
١٢-https://imamhussain.org/arabic/٤١٤٦ خطبة الإصلاحات: الخطبة الثانية لسماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي التي ألقاها في الصحن الحسيني الشريف يوم الجمعة ١٨/ ربيع الثاني /١٤٣٧هـ الموافق ٢٩ / كانون الثاني /٢٠١٦ م
١٣-مؤسسة بحر العلوم الخيرية في النجف الاشرف - مؤتمر حشد العتبات المقدسة الأوّل - ٢٠٢٠/١٢/٣ - https://bahar.iq/articles/view/details?id=١١٧
١٤-الحلي وليد و الزبيدي سلمان: كتاب (التربية على حقوق الانسان)، الطبعة الأولى ١٤٣٧ هـ- ٢٠٠٧م، مطبعة الأحمد للطباعة والتصميم- بغداد العراق، ٤٠٦ صفحة.
١٥-الدليمي عباس فاضل، الموسوعة الميسرة في حقوق الانسان، ١٤ مجلد، الطبعة الأولى ٢٠١٧م-١٤٣٨هـ ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن.
١٦-وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الانسان
https://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights